شرح

المقدمات التأسيسية

في علم النحو

شرح فضيلة الشيخ

....

- حفظه الله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِّ ربِّ العَالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ الأنبياءِ والمُرْسَلِين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعدُ:

فإنَّ عِلمَ اللغةِ العربيةِ عِلمٌ شريفٌ من العُلوم التي تتعلق بشريعتنا وديننا، وهو ليس مُستقِلًّا أو مُنفصِلًا عن علوم الشريعة، بل هو مُرْتَبِطٌ ارتباطًا وثيقًا بها.

لكن قَبْلَ الشُّروعِ فيما يتعلَّق بهذا العِلم، ها هُنَا نقطةٌ ينبغي التنبيهُ عليها، وهي استحضارُ طالبِ العِلم للنية.

فإذا أخلصَ طالبُ العِلم في نيته، واستحضر أنه في عِبادة، فإنه يُؤْجَرُ في كل دَقيقة بل في كل ثَانِية على جلوسه في مجالس العِلم والذِّكْر، ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله: "العِلْمُ لا يَعْدله شيءٌ إذا صحَّت النِّيَّة"(١).

وقد فضّل كثيرٌ من العُلماء العِلم والزِّيادة منه على نَوافِل العِبادات، فخروجُ الإنسانِ من بيتِه، وسَعْيُه في طلبِ العِلم الذي هو ميراثُ النُّبوّة، والبحث عمَّا يرفع به الجهلَ عن نفْسه، لا شكَّ أنها عبادةٌ عظيمة قد تكونُ سببًا في دخولِ صاحبها الجَنَّة؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»**(٢).

هذا، وينقسمُ العِلمُ إلى قسمين: عِلمُ مَقاصِدَ، وعِلمُ وسائلَ.

ويشمل عِلم المقاصد علوم: العقيدة، والفقه، والتفسير، والحديث، التي يتعلَّمها الإنسانُ لذاتها، بينما علوم الوسائل مجرد وسيلة مُعِينة له على فهمِ تلك العلوم.

هذا، ويُعدُّ عِلمُ اللُّغة العربية من أشرفِ علومِ الوَسائل؛ لأنَّ القرآن الكريم نزلَ بهذه اللغة، فلا يُمْكِنُ للإنسان أنْ يفهمَ القرآن فهمًا صحيحًا إلا إذا تعلّم هذا العِلم.

---

(١) مسائل الإمام أحمد رواية ابن هانئ (٢/ ١٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الذكر (٢٦٩٩).

ولا يخفَى عليكَ -أيها القارئُ اللَّبِيبُ- أنَّ هذا العِلم لمْ يكن موجودًا في السابق، وإنما أَحْدَثَهُ العَرَبُ في زمنٍ متأخِّر في عهدِ الصحابة؛ لأنَّ العرب كانوا يتكلمون على السَّلِيقة باللغة العربية الفُصحَى، فكانت هي اللغة التي يسمعها المرءُ من والدَيْهِ في بيته، وفي المسجد، وفي السوق، وفي كل مكانٍ.

ولهذا أسلمَ كثيرٌ من الصحابة، من أمثال: سعد بن مُعاذ، وَأُسَيْد بن الحُضَير، والطُّفَيْل بن عَمْرو الدَّوْسِي بمجرد سماع القرآن، وما ذاك إلا بسببِ معرفتهم للغة وتدبّرهم لمعانيها، فعَلِمُوا أنَّ ذلك الكلام ليس بكلامِ بشرٍ، وأنه لابد أنْ يَكُونَ من عندِ الله سبحانه وتعالى.

وللأسفِ الشديد تمَّ تنحيةُ اللغة العربية الفصحى في حياتنا، وأصبحت اللغة العامية هي الدارجة على لساننا، مما كان له الأثر السيء لفهمِنا لغريبِ القرآن، وفائدة التقديم والتأخير، وغيره من الأساليب.

بل وصلَ الحالُ إلى فهمِنا لكلماتٍ على غيرِ معناها الصَّحيح؛ إمَّا لخفاءِ معناها، أو لأنها انتقلتْ إلى معنى آخَر مع مرور الزمن، وهذا ما يُسمَّى بالتطور اللُّغَوِي، ومن أمثلة ذلك:

المثالُ الأول: قال الله عز وجل عن قومِ عادٍ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء: ١٢٩].

فعند سماعنا لكلمة مصانع، فإنَّ أولَ ما يتبادر إلى الذهن هي مصانعنا الموجودة الآن، وبطبيعة الحال ليس هذا مقصود الآية؛ لأنه لم تكن هناك مصانع في ذلك الوقت.

ولفهمِ المراد بكلمة مصانع في الآية، لابد من ربطِ السياق بعضه ببعض، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء: ١٢٩]؛ أي تَطُولُ أعمارُكم وتَنْجون منَ الموتِ، ولذلك تتخذون المصانع.

والمصانع في لغة العرب قديمًا: هي مجتمع المياه (البِرَك) [٣]، فقد كان الناس يموتون قديمًا في سفرهم من شدة الظمأ؛ نظرًا لبُعْدِ مسافة السَّفر، ولذا حفروا تلك البِرَك؛ لتَحْجِزَ مياهَ السُّيول وتمتلأَ بها، فيشربون منها ولو بعد عدة أشهر.

المثالُ الثاني: ما وردَ في قِصَّة يوسف –عليه السلام–، عندما قال الله عز وجل على لسانِ إخوته: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ [يوسف: ٩].

فليس المرادُ بكلمة ﴿ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾: أي ارْمُوه، كما يتبادر إلى ذهنِ مُعْظَمِ الناس الآن، بلِ المقصودُ: نَقْلُه إلى أرضٍ بعيدة.

إذًا فَهْمُ اللغة العربية الفصحى يساعدُ على فهمِ غريبِ القرآن، وأيضًا يساعدُ على فهمِ فائدة التقديمِ والتأخير الوارد في بعضِ آياتِ القرآنِ الكريم.

ومن أمثلةِ التقديم والتأخير الوارد في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فهنا قدَّمَ إبراهيمَ (المفعول به) على ربِّه (الفاعل).

وقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة: ٥]، فهنا قدَّمَ إياك (المفعولَ به) على نعبدُ (الفعل)، مع أن سياق الكلام نعبدكَ ونستعين بك.

فلفهمِ فوائدِ هذا التقديم والتأخير وغيره من الأساليب لابد من فهمِ اللغة العربية والإلمامِ بقواعدها؛ لأنَّ القرآنَ الكريم نزلَ بلغةِ العَرَبِ، وقد وصفَ اللهُ عز وجل القرآنَ في إحدى عشرة آية بأنه عربيٌّ مُبين؛ أي واضح، فقال تعالى: ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) ﴾، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، وغيرها من الآياتِ.

---

(٣) قَالَ الأَصمعي: وَهِيَ مَساكاتٌ لماءِ السَّماءِ يَحْتَفِرُها الناسُ فيَمْلَؤُها ماءُ السَّماءِ يَشْرَبُونَهَا. لسان العرب (٨ / ٢١١).

هذا، وتُعَدُّ الإبانةُ والفصاحةُ ومعرفةُ اللغةِ مِنَّةٌ وعطاءٌ من الله، قال عز وجل: ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن: ١ - ٣] ثم قال: ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾. فهي تزيدُ من معرفةِ الإنسان بربِّه ودِينه، والتّفقّه في سُنَّة نبيِّه، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧]. فالأحكامُ الشَّرعيةُ جاءتْ بالألفاظ العربية والسِّياق العربي، ولا يُمْكِنُ للإنسانِ أنْ يَفْقَهَ ذلك إلا إذا فهِمَ اللغةَ فهمًا جيدًا.

ولهذا حثَّ السَّلفُ الصَّالحُ قديمًا على تعلُّمِ اللغة العربية لاسيما عندما بدأ يَدُبُّ اللَّحْنُ، وذلك في أواخرِ عهدِ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لمَّا انتشرَ الإسلامُ وفُتحت الأمصار، وبدأَ الاحتكاكُ بالمَوَالي، ودخلَ غيرُ العربِ في الإسلام، فَضَعُفَ اللسان العربي، وانتشرتِ فيه العُجْمَةُ، التي نراها الآن على ألسنة حتى الصِّغار.

بل إنه أصبحَ عندنا عُجْمَةٌ حتى في العَامّيّة! وانظر إلى كلامِكَ مع إخوانك الباكستانيِّين والهنود وغيرهم من غير العرب الذين لا يتكلمون باللسانِ العربي، كيف تتكلم معهم، وكيف يظل الواحدُ منهم بالعِشرين سَنَةً ولا يُحْسِنُ سوى النُّطق بالعامّيّة! في حين يذهب الشاب إلى بلاد أوروبا أو أمريكا، فيتعلم لُغتهم في سَنَةٍ واحدة.. فكم جَنَيْنَا على إخواننا، وكم جَنَيْنَا على لغتنا.

لقد كان هناك تضايقٌ من هذا الأمر في بدايته، لكنه لمْ يَصِلْ إلى درجة أنْ يكونَ قضيةً كبرى يهتمُّ بها الناس، بل يهتمُّ بها حتى الخليفة، فقد مرَّ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في يومٍ من الأيام على شبابٍ يتعلمون الرَّمي.. والمشكلة دائمًا كانت في الصِّغار وليست في الكبار؛ لأن الكبار نشأوا على الفصاحة والبلاغة، لكنْ نظرًا لاحتكاكِ هؤلاء الصغار بالمَوَالي وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام، فهُمُ الذين بدأ يَدُبُّ اللَّحنُ إلى ألسنتهم.

فمرَّ بهم عمرُ رضي الله عنه وهم يتعلمون الرِّماية، فإذا بهم يخطئون في الرَّمي، فلامَهُم على ذلك، وكانتِ الرِّمايةُ حينئذٍ من مفاخر العرب ومن الأمور الواجب تعلُّمها للاستعداد للجهاد، فقال أحدُهم -يعتذرُ لعمر رضي الله عنه-: إنَّا قومٌ مُتعلِّمين!

فغضب عمر رضي الله عنه، وقال لهم: واللهِ، لخطئِكُم في لسانِكُم أشدُّ من خطئكم في رَمْيِكُم(٤).

وما ذاك إلا لأنه يَعْرِفُ أنَّ اللسان يؤثِّر في فهمِ الإنسان ومعرفته للقرآن والسُّنة، ولهذا كان يقول رضي الله عنه: تعلَّمُوا العربية، مع أن عمر كان في بدايات انتشار اللحن، يقول: تعلموا العربية؛ فإنها تَزِيدُ في العقل وتُثَبِّتُ المُروءة(٥).

وفي رواية: تُثَبِّتُ الدِّين، وتزيد في المروءة.

وبدأتِ المشكلةُ الحقيقية واستشعرَ العلماءُ عِظَمِ هذه الطَّامة الكبرى عندما وصلَ اللحنُ إلى القرآنِ الكريم، وذلك في أواخِرِ عهدِ عمر، وبدايات عصرِ عثمان رضي الله عنهما، لاسيما والقرآن -كما هو معلومٌ- كان مكتوبًا في بداية الأمر بدون نُقَطٍ وبدون شَكْلٍ، وكانتِ العربُ أُمَّةً أُمّية، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا ﴾ [الجمعة: ٢]؛ أي العَرَب.

فكان الذين يقرأون ويكتبون يُعَدُّون على أصابعَ اليد الواحدة، ولو نظرنا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لوجدنا أنَّ كتبةَ الوحي لمْ يتجاوَزُوا العشرين رَجُلًا.

---

(٤) رواه العقيلي في الضعفاء (٣ / ٣٩٥)، وابن عدي في الكامل (٦ / ٤٤١)، والحديث موضوع. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥ / ٤٣٢)، وبنفس المعنى أخرج البخاري في الأدب المفرد (١ / ٤٧٥) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَجْلَانَ قَالَ: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِرَجُلَيْنِ يَرْمِيَانِ فَقَالَ: أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ أَسَبْتَ فَقَالَ: عُمَرُ سوء اللحن أشد من سوء الرمي. والحديث ضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الأدب المفرد (١ / ٨٠).

(٥) أخرجه سعيد بن منصور (٢ / ٣١٥)، والبيهقي في الكبرى (٢ / ٢٨)، والخطيب في جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١١٣٢).

فكان القرآنُ مكتوبًا بدون نُقَطٍ وبدون تَشْكِيلٍ، وكانوا يتكلَّمُون على السَّلِيقة، فلما بدأتِ الناسُ تَلْحَنُ في القرآن وتُخْطِئ فيه، انتبه العلماءُ لذلك الأمر، وتمَّ وضعُ عِلمِ النحو.

قَدِمَ أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-، فقال: مَن يقرئني شيئًا مما أنزل الله تعالى على محمد -صلى الله عليه وسلم-، فأقرأه رجلٌ سورة براءة، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ بالجرِّ.

فقال الأعرابي: أَوَقَدْ بَرِئَ اللهُ من رسوله؟ إنْ يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر -رضى الله عنه- مَقَالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي، أتبرأُ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمتُ المدينة ولا عِلْمَ لي بالقرآن، فسألتُ مَن يقرئني؟ فأقرأني هذا سورة براءة، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾، فقلتُ: أوقد برئ الله تعالى من رسوله، إنْ يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر -رضى الله عنه-: ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فقال الأعرابي: وأنا واللهِ أبرأ ممَّن برئ اللهُ ورسولُه منهم، فأمرَ عمر -رضى الله عنه- ألا يُقْرِئَ القرآنَ إلا عالمٌ باللغة[٦].

والقصة المشهورة وقيل: إنها حدثتْ في عهدِ عليٍّ رضي الله عنه.

فالرَّجُلُ الذي أَقْرَأَ الأعرابيَّ عندما جرَّ كلمة: ورسولِه، عطفها على المشركين؛ أي أنَّ اللهَ بريءٌ من المشركين ومن الرسول.

فنظرًا لمعرفة الأعرابي لسياق الكلام وتركيب الكلام -وتلك كانت سَلِيقةً فيهم- قال: أنا أبرأ مما بَرِئَ اللهُ منه، فبرِئَ من الرسول عياذًا بالله.

(٦) رواه أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء (١/ ٣٩).

فلما صُححت له القراءةُ بأنها: ﴿وَرَسُولُهُ﴾؛ أي: ورسولُه كذلك. وقيل: معطوفة على محل اسم أنّ، استبانَ له المعنى الصحيح، وأنّ كلمة الرسول معطوفة على لفظِ الجلالة اللهِ.

إذًا فَهْمُ الإنسانِ للغةِ بجميع فروعها؛ من نحوٍ، وصرفٍ، وبلاغةٍ، وغريبٍ، وسياقٍ.. يساعدُه على فهمِ القرآن الكريم فهمًا صحيحًا جيدًا، ويجعله يَتَدَبَّر آياته، ويُدْرِكُ دقائقَ المعاني فيه.

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

المثالُ الأول: قال تعالى في سورة التوبة عن النصارى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ﴾ [التوبة: ٣١].

فمَن يقرأها بدون وعيٍ ينطقها: والمسيحِ، بالجرِّ.

وهذا خطأٌ فاحِشٌ، والصوابُ: ﴿وَالْمَسِيحَ﴾، بالفتحِ؛ لأنها معطوفةٌ على الأحبارِ والرّهبان، وتقدير الكلام: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيحَ أربابًا من دون الله.

وها هنا لفتةٌ لُغَوية بديعة يُبْصِرُها كلُّ مَن له بصرٌ وفقهٌ ومعرفة باللغة، وهي لماذا فُصل المسيحُ عن الأحبار والرهبان؟ وبمعنى آخر: لماذا ما جاء السياق: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيحَ أربابًا من دون الله؟

والجوابُ: لأنهم غَلَوْا في المسيح أكثر من الأحبار والرهبان، وانقسموا فيه إلى ثلاثِ طَوائف: فمنهم مَن يقول: هو الله، ومنهم مَن يقول: ابن الله، ومنهم مَن يقول: ثالث ثلاثة، كما ذُكر ذلك في سورة آل عمران.

فهذا المعنى لا يَصِلُ إليه الإنسان إلا إذا فَهِمَ اللغةَ فهمًا جيدًا، وحينها يتلذذُ بالقرآن أكثر وأكثر.

المثال الثاني: حكايةُ الأصْمَعِي مع ذلك الأعرابي.

قال الأصمعي: كنتُ أقرأ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾، وكان بجانبي أعرابيٌّ. فقال: كلام مَن هذا؟

فقلتُ: كلام الله.

قال: أَعِدْ.

فأعدتُ. فقال: ليس هذا كلام الله!

فانتبهتُ فقرأتُ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾ [المائدة: ٣٨]. فقال: أصبتَ.

فقلتُ: أتقرأ القرآن؟! قال: لا.

قلتُ: فمن أين علمتَ؟!

فقال: يا هذا! عَزَّ فحكمَ فقطعَ، ولو غفرَ ورحمَ لما قطعَ(٧).

فمع أنَّ ذلك الأعرابي لا يحفظُ القرآن إلا أنه فَطِنَ أنَّ هذا الكلام لا يُمْكِنُ أنْ يكونَ كلامَ العربِ فضلًا عن أن يكون كلامًا للهِ عز وجل؛ لأنه لو غفرَ ورحمَ لَمَا قطع، ولكنه عزَّ وحكمَ فقطع.

فهذا الارتباط بين أواخر الآية وأوائلها ارتباطٌ عظيم جدًّا، وهذا من عظمة القرآن ومن إعجازه الذي لا يَصِلُ إليه إلا مَن فهمَ القرآن فهمًا جيدًا.

وممن اعتنى ببيانِ سياق الآيات، وارتباطِ آخرها بأولها، العَلَّامة ابن القَيِّم رحمه الله في كتابه الماتع: بدائع الفوائد، فليرجع إليه مَن أرادَ المزيدَ.

المثال الثالث: قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، عندما قالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ [يوسف: ٣٢].

---

(٧) ذكره الواحدي في التفسير الوسيط (٢ / ١٨٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٥٤٦).

فالفعلُ ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾: اتصلتْ به نونُ التوكيد الثقيلة، بينما الفعلُ ﴿وَلَيَكُونًا﴾: اتصلتْ به نونُ التوكيد الخفيفة.

فمِن ناحيةِ الإعراب كلاهما مبنيًّا، لكن الاختلاف في التوكيد، فما الفَرقُ بينهما؟ ولمَ أكّدت امرأةُ العزيز الأول بالنون الثقيلة، والآخر بالنون الخفيفة؟!

والجوابُ: لقد أكّدتِ السجن بالنون الثقيلة؛ لأنها تريده أنْ يكونَ مسجونًا عندها؛ لأنَّ السجنَ كان في داخل القصر، لكنها في الوقت عينه لا تريده أنْ يكونَ من الصاغرِين، لكن لأنه لا يوافق هواها تريد أن تذله حتى يطيعها، فكلمة يكونًا: أُكدت بالنون الخفيفة؛ لأنها ليست هي التي في مَكْنُونِ قَلْبِها.

فانظر -رعاكَ الله- إلى هذا التفريق الدقيق في القرآن الكريم بين حرفٍ وحرفٍ، فمَن ذا الذي يَصِل إلى هذه المعاني وتلك الأسرار، إلا أنْ يكون عالِمًا بلُغَةِ العرب.

المثال الرابع: قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

فهذه الآيةُ تتحدثُ عن طفلةٍ صغيرة يتيمة عندها مَالٌ، وليس لها وَلِيٌّ من أرحامها، وإنما من غير أرحامها؛ كابن العم، وابن خال، فوصفَ اللهُ حال هذه اليتيمة، فقال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، أي أن الوصي عليها يريد أكل مالها؛ إما بزواجها، وإما بمنعها من الزواج -إذا كانت دَمِيمَةً مثلًا- فحينها تظل وَصِيةً تحته؛ لأنها لو تزوجت لذهبتْ هي ومالها إلى زوجها، فالله عز وجل قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

فمَن له دِرايةٌ باللغةِ يَعْرِفُ أنَّ الفعلَ: رَغِبَ، لا يتحدد معناه بذاته، وإنما يتحدد بحرف الجر الذي يليه؛ فتقول: رغبتُ في الماء: أي أريده. ورغبتُ عنه: أي لا أريده.

فلمْ يأتِ اللهُ عز وجل لا بحرفِ الجر (في)، ولا بـ (عن)، وإنما أتى بأنْ المصدرية؛ لتقومَ مقام المعنيين، وتؤدي الآية في سياقٍ واحد مقامَ الجملتين؛ أي الرغبة وعدم الرغبة.

المثال الخامس: تقديمُ إياكَ في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥].

فهنا قدَّمَ اللهُ عز وجل الضميرَ إياك؛ للاختصاص والتنبيه ولفتِ انتباه السامع؛ لأن هذا هو المقصود والمرغوب، فالتقديم دائمًا يُعنى به لفت انتباه السامع والتركيز على الأمر، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه الآية لفتةً جميلة في التقديم والاهتمام به، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥] تدفع الكبرياء[٨].

وهذا استنباطٌ بديعٌ من شيخِ الإسلام لإحدى معاني هذه الآية ومن التقديم والتأخير فيها. ورغم أنه كان مشغولًا طوال حياته في الجهاد وفي التأليف، بل وقضى شَطْرًا من عمره في السجن، ومع ذلك كان إمامًا في النحو.

وهذا قد يستغربه كثيرٌ من الناس، بل كان أعلمَ زمانه في النحو.. لقد قابلَ أبا حَيَّان الأندلسي، إمام النحو في زمانه، وصاحب كتاب البحر المحيط، والتذييل والتكميل، وارتشاف الضرب من لسانِ العرب، وغيرها من الكتب الموجودة الآن، إمام من أئمة الدنيا في النحو، وتلاميذه ابن هشام وابن عقيل أصحاب شروح الألفية..

قابلَ أبا حَيَّان، وتناقش معه في مسألةٍ من المسائلِ، فكان أبو حيان دائمًا حُجّته كحُجّة النَّحْوي دائمًا: قال سِيبَوِيه، قال سيبويه.

---

(٨) المستدرك على مجموع الفتاوى (١ / ١٧٥).

وشيخُ الإسلام يعتمد على الدليل أكثر من اعتماده على الأقوال، فغضب شيخ الإسلام، وقال: كلما أقول شيئًا، تقول: قال سيبويه. فهل سيبويه نبيُّ النحو؟! لقد أخطأ سيبويه في كتابه في ثلاثين موضعًا لا تعرفها لا أنتَ ولا هو(٩)!

فانظر -رعاكَ الله- إلى أين وصلَ التحدي، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ، فإنما يدلُّ على ضبطِ شيخِ الإسلام وفهمه للكتاب، وليس مجرد حفظٍ.

هذا الكتاب الذي جمعَ فيه سيبويه لغة العرب، والذي يُعَدُّ أُعْجُوبَةً من أعاجيب الدنيا، ولذا يُسمى قرآن النحو مع تحفّظ بعض العلماء على هذه التسمية.

فهكذا كان اهتمامُ العلماء باللغة؛ لمعرفتهم أنَّ هذه اللغة هي التي توصلهم إلى فهمِ القرآن الكريم.

المثال السادس: الفَرق بين المُنذِر، والمُنذَر.

قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)﴾ [يونس: ٧٣]؛ حيثُ يخطِئُ بعضُ الناس، فيقرأ: ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾، فيَخْلِطُ بين اسمِ الفاعل واسم المفعول.

وهذا خطأٌ شنيعٌ؛ لأنَّ المنذِرين هم الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)﴾ [الصافات: ٧٢]، والمنذَرين هم الأقوام المنذَرة، فانظر كيف جعلوا العاقبة على الرسل عياذًا بالله.

وكذلك الفَرق بين المُقسِطِين والقاسِطِين؛ حيث أثنى اللهُ عز وجل في القرآن على المقسطين، وتوعَّد القاسطين، فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن: ١٥].

فالقاسِط: اسم فاعل من قَسَطَ الثلاثي؛ أي جارَ وظلَمَ، بينما المقسِط: اسم فاعل من أَقْسَطَ الرباعي؛ أي عدلَ.

---

(٩) هذه القصة ذكرها ابن حجر في الدرر الكامنة في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٧٨).

فتأمل -رعاكَ الله- كيف أنَّ زيادة حرفٍ غيّرت معنى الكلمة.

المثال السابع: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، والفَرق بينه وبين قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١].

فمن أشنع الأخطاءِ التي يقع فيها بعضُ الناس، قولهم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾؛ أي: لا تتزوَّجوا، بينما قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا﴾؛ أي: لا تُزَوِّجوا. والفَرق بين المعنيين كالفَرق بين السماء والأرض، وهو بهذا الخطأ يُحرِّفُ المعنى تحريفًا تامًّا.

ولذلك ذكرَ العلماءُ أنَّ التحريفَ الذي يُغيِّر المعنى، يُبْطِل صلاةَ صاحبه، ومثالُه: أنْ يقرأَ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، بالضَّمِّ، والصوابُ: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ بالفتحِ.

فقولُ الإنسان: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ﴾، يُغيِّرُ المعنى بالكامل؛ أي أنكَ الذي أنعمتَ على النبيين والصِّدِّيقِين، والشهداء، وليس الله عز وجل.

فتاءُ الفاعل تأتي على ثلاثِ صُوَرٍ: (قلتُ، قلتَ، قلتِ). والذي يُفرِّق بينها الحركات، فعندما يتحدثُ المرءُ عن نفسِه يستخدم المضمومة، وعندما يخاطِبُ شخصًا أمامه يستخدمُ المفتوحةَ، والمرأة تستخدم المكسورة.

ومنَ الأخطاء الشَّنيعة كذلك والتي تُحرِّف المعنى تحريفًا تامًّا، الخطأ في قراءة قولِ الله عز وجل في سورة يونس عن فرعون: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يونس: ٩١]، فتسمع بعضَ الناسِ يقول: عَصَيْتُ! بضمِّ التاء.

فالخطاب في الآية مُوجَّهٌ إلى فرعونَ، والعصيان المذكور عصيانه هو، وعليه فنطقُ ﴿عَصَيْتَ﴾ ﴿عَصَيْتُ﴾ يَرُدُّ العِصْيانَ إلى اللهِ، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ولذا من الطَّرائف التي تُروى في هذا: أنَّ أحدَ الشباب الذين لا يَعْرِفُون النحو حفظَ البيتَ:

أحــــبُّ الصــــالحين ولســـتُ مـــنهم　　　وأرجـــو أنْ أنـــالَ بهـــم شـــفاعةً.

فذهبَ إلى شيخه، وأرادَ أنْ يُسْمِعَهُ شِعْرًا، فقال: أحبُّ الصالحين ولستَ منهم!

فقلبَ تاءَ الفاعل المتكلِّم وجعلها للمُخاطَبِ، فأخرجَ شيخه من الصالحين.

فضحكَ الشيخُ، وقال: صدقتَ يا بني. وهذا من تواضعه؛ لأنه يَعْرِفُ أنه جاهِلٌ.

فالحاصِلُ أنَّ الجهلَ بالنحو واللغة يُفَوِّتُ على صاحبه بعضَ الفوائد، واللَّطائف، والعجائب التي في القرآن الكريم، وفي سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم.

وليس المقصودُ أنْ ينشغلَ المرءُ بالنحو واللغةِ عن العلوم الأخرى، كلا، فأنا دائمًا أُشبِّه النحو بالوضوء للصلاة، فما فائدةُ أنْ ينشغلَ المرءُ بأحكام الوضوء، وأركانه، وسُنَنه، وآدابه، وهو بَعْدُ لمْ يتعلمِ الصلاةَ؟!

فكما أنَّ الغايةَ من الوضوءِ هي الصلاة، فكذلك النحو واللغة الغاية منهما الوصول إلى فهمِ كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالنحو وسيلةٌ وليس غايةً، وليس هو كما قالَ الشاعِرُ:

وإذا طلبـــتَ مـــن العلـــومِ أَجَلَّهـــا　　　فأَجَلُّهـــا منهـــا مُقِـــيمُ الأَلْسُـــنِ.

لأنَّ النحوَ ليس هو أَجَلّ العلوم، ولكنه وسيلةٌ توصِلُ إلى أجَلِّها، وهناك قصةٌ مشهورةٌ رواها أصحابُ التَّواريخ كابن خلِّكان والذَّهبي وابن الجوزي والسُّيوطيِّ أنَّ أبا بكر بن مجاهد المقرئ المشهور، قال: كنتُ عند أبي العبَّاس ثعلب، فقال لي: يا أبا بكر، اشتغلَ أصحابُ القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهلُ الفقه بالفقه ففازوا، واشتغل أصحابُ الحديث بالحديث ففازوا، واشتغلتُ أنا بزيدٍ وعَمرو -يقصدُ بعلم النَّحو-، فليتَ شِعْرِي ما يَكُون حالي في الآخرة؟

قال ابنُ مجاهد: فانصرفتُ من عنده، فرأيتُ تلك الليلة النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في المنام، فقال لي: «**أقرِئْ أبا العبَّاس عني السَّلام، وقل له: إنَّكَ صاحِبُ العِلمِ المستطيل**».

قال أبو عبد الله الروذباري: "أرادَ أنَّ الكلامَ به يَكْمُل، والخِطابَ به يَجْمُل، وأنَّ جميعَ العلوم مُفْتَقِرَةٌ إليه"(١٠).

فصاحِبُ التفسيرِ والفقه والحديث.. وغيرها من العلوم، يحتاجُ إلى اللغةِ، ولا يستطيعُ الاستغناءَ عنها؛ لأنهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَضْبِطَ النصوصَ بدونها، ولهذا قالَ مالكُ بنُ أنسَ رحمه الله إمام دار الهجرة: "لا أُوتَى برَجُلٍ يُفسِّر كتابَ اللهِ غيرَ عالِمٍ بلُغَةِ العرب، إلا جعلتُه نكالًا"(١١).

وانظرْ -رعاكَ الله- إلى هؤلاءِ الجهلة الذين يتحدّثون في الإعلام الآن، ويتكلمون في دِين الله عز وجل بغيرِ عِلْمٍ، والواحِدُ منهم أجهلُ من حمارِ أهله!

فمن أَجْلِ ما يُسمَّى بحقوقِ الإنسان والمساواة بين الرجل والمرأة، يقولُ: بأنَّ الضَّرْبَ في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، ليس هو الضَّرْب المعروف، وأنَّ المرادَ به الضَّرْبُ في الأرض؛ أي السَّفَر!

وهذا التّفسيرُ والتّحريف لمرادِ الله عز وجل من الأمور المُضْحِكَات المُبْكِيَات، فهل يُعقل أنه إذا حدثَ نُشُوزٌ من الزوجة أنْ تأخذَها وتسافرَ بها؟!

هذا، وقد ضَلَّتْ كثيرٌ من الطوائف في العَقِيدةِ بسببِ جهلِهم بالنحو واللغةِ، فعنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيّ، قال: "عامَّةُ مَن تَزَنْدَقَ بالعراق لقِلَّةِ عِلمهم بالعربية"(١٢)، وجاء هذا الأثر أيضًا عن أبي عمرو بن العلاء، أنه قال: "أكثرُ مَنْ تَزَنْدَقَ بالعراق لجهلهم بالعربية"(١٣).

---

(١٠) انظر: إنباه الرواة (١ / ١٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٤ / ٦)، شذرات الذهب (٣ / ٣٨٤)، تاريخ بغداد (٦ / ٤٤٨)، وفيات الأعيان (١ / ١٠٣).

(١١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/٢٣٢).

(١٢) ذكره أبو شامة في خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، ص ٦٣.

بل إنَّ خلافَ أهلِ السُّنة مع المعتزلة بعضه خلاف لُغَوِيّ، مثل مسألة النظر إلى الله عز وجل، وإنكارهم رؤيته يوم القيامة، مع أنها وردت صريحة في القرآن.

وإنْ تَعْجَب فاعجبْ من صنيعِ إمامٍ في اللغة مثل الزَّمَخْشَرِي، صاحب الكَشَّاف، وصاحب كتاب المُفَصَّل، ومع ذلك تراه يأوِّل ويُنكِر الرؤية بتأويلاتٍ لا تقعُ من مبتدئٍ في اللغة فضلًا عن أنْ يكونَ عالمًا بها كالزمخشري.

فالمبتدئُ في اللغة يَعْرِفُ أنَّ الفعلَ نظرَ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢،٢٣] إذا تعدَّى بـ (إلى) فإنه يُقصد به الرؤية البصرية، ولكنه الاعتقادُ قَبْلَ الاستدلال، كما هي عادةُ أهلِ الأهواء؛ فإنهم يعتقدونَ ثُمَّ يستدلُّون، بينما أصحابُ الحق -كما ذكرَ ذلك شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يستدلُّون ثُمَّ يعتقدون.

فتراهم يفسِّرون قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾ [النساء: ١٦٤]، بأنَّ كلَّم هنا بمعنى جرحَ.

ورغم أنَّ هذا موجود في لغةِ العرب، إلا أنه ليس المراد في الآية، ولهذا لما احتجَّ بعضُ المعتزلة بهذه الآية على أحدِ علماءِ أهلِ السُّنة، أحاله إلى آيةٍ أخرى ما استطاعَ أنْ يَفْلِتَ منها، فقال له: وماذا تقول في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فردَّه وحجَّه باللغةِ.

وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على أهميةِ اللغة في المعتقَد، فإنَّ كثيرًا من صفاتِ الله عز وجل يُمْكِنُ إثباتها من خلالِ قواعد النحو واللغة.

هذا، ومن أمثلة التحريف في اللغة وجنايتها على فهمِ كلامِ النبي صلى الله عليه وسلم:

(١٣) نزهة الألباب في طبقات الأدباء، ص ٢٥.

المثال الأول: في وصفِ خديجة رضي اللهُ عنها للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بأنه يَقْرِي الضِّيْفَ[١٤].

فقد قمتُ بجمعِ أكثر من ثلاثين خطأ، لا أقولُ يقعُ فيه العَوامُ بل يقعُ فيه كثيرٌ من الخُطَباء وممن يُلْقُون دروسًا في إذاعَةِ القرآنِ.

ولعلَّ من أَبْرَز هذه الأخطاءِ عدمَ التفرقة بين تَقْرِي الضيفَ، وتُقْرِي الضيفَ؛ فإنَّ الأَوَّلَ وصفٌ عظيمٌ من خديجةَ رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه يَقْرِي الضيف؛ أي يُطْعِمُ الأضيافَ، فإنَّ القِرا هو الضيافةُ، أي أنه تصفه بالكرمِ والجُودِ، وتحريفه إلى تُقْرِي الضيفَ، يجعلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يتّصفُ بصفةٍ لا قيمةَ لها؛ فإنَّ تُقْرِي بضَمِّ التاء هي من القراءة، أي أن القائل بذلك كأنه يقول: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عندما يحلُّ به أضيافٌ، يأخذ دفتره وقلمه ويُدرِّس لهم!

المثال الثاني: ومن الأخطاء اللغوية التي تحرِّف المعنى ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم لبلال رضي الله عنه: **«يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»**[١٥].

حيث يقرأُ البعضُ: دُفَّ نعليكَ، بضمِّ الدال!

فالدَّفُّ بفتح الدال: هو نوعٌ من أنواع المشي، والمرادُ أني سمعتُ صوتَ نعليكَ وأنتَ تمشي.

أما الدُّفُّ بضم الدال، فهو الطَّبْلُ، فيكونُ المعنى: سمعتُ طَبْلَ نعليكَ! وهذا كلامٌ لا يليقُ بجَنَابِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

---

(١٤) أخرجه البخاري في باب بدء الوحي (٣)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

(١٥) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة – باب فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار (١١٤٩)، مسلم في كتاب فضائل الصحابة – باب من فضائل بلال رضي الله عنه (٢٤٥٨).

هذا، ولا تقتصرُ أهمية تعلُّم اللغة على فهمِ كلامِ الله وكلام رسوله فحسب، بل يتعدَّى ذلك إلى فهمِ كلامِ سلفنا الصالح عندما تقرأ في كتب التراجم أو السير.

فمثلًا كلمة جُرْثُومَة؛ يُذَمُّ بها المرءُ الآن ويُسَب، في حين أنها في لغةِ العربِ تُستخدم في المدحِ لا الذم، ومعناها أصلُ العرب(١٦)، ولهذا نقرأ في كُتُبِ التّراجم والسِّير والتاريخ: فلانٌ من جرثومة العرب، أي من أصلِ العرب.

إذًا فهمُ اللغةِ، ومعرفتها يعطي الإنسانَ إدراكًا لفهمِ ما يقرأُ، فإذا وصلَ الإنسانُ إلى تلك المرحلةِ الأوّلية التي تُمكِّنه من ضبطِ وفهمِ ما يقرأ، فلينطلقْ، ولا يظلُّ يَدْرِسُ ويدرس، كما فعلَ ذلك الشيخُ العَلَّامَة عبد العزيز بن باز -رحمه الله-، فقد تتبعتُ كلامَه، وسمعتُ فتاواه في برنامج نور على الدَّرْبِ، فأَلْفَيْتُه لا يكادُ يَلْحَنُ، رغم أنه ما دَرَسَ في كُتُبِ النحو إلا كتاب قطر النَّدى.

ولا أضربُ المثَلَ بالعَلَّامة ابن عثيمين، فإنه يُعتبر إمامًا في النحو؛ فقد شرحَ الألفية، والآجرومية، بل وشرحَ حتى كُتُب البلاغة، وله اجتهاداتٌ واختيارات في النحو واللغة، فما أَشْبَهَهُ بشيخِ الإسلام ابن تيمية!

فميزةُ اللغةِ أنَّ الإنسان إذا ضبطها يستطيعُ أنْ ينطلقَ ويقرأَ في المُطَوَّلات والشروح؛ لأنه يفهمُ ما يُقال، ويفهمَ ما يُكتب، فما تخفى عليه بعضُ الألفاظِ التي فيها غريب، أو تركيب ليس بصحيح.

هذا، وإنَّ منَ جرائمِ المدارسِ الآن أنها شجّعت بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ على بغضِ عِلم النحو وتكوين حالة من الكراهية له عند المتعلِّمين، مما دفعَ بعضهم لقولِه: أنا أكرهُ النحو! وما نشأَ ذلك الخَلَلُ إلا نتيجةً للخَللِ في تدريس تلك المادة.

---

(١٦) قال ابن منظور: "جرثم: الجُرْثُومة: الأَصل؛ وجُرْثُومة كُلِّ شَيْءٍ أَصلُه ومُجْتَمَعُه". لسان العرب (١٢٩٥).

فسبحان الله! كيف يَكْرَه المرءُ عِلمًا يُوصِله إلى فهمِ مراد الله ومرادِ رسوله، وضبطِ اللغة التي أُنزل بها القرآن الكريم؟!

هذا، وليُعْلَمْ أنَّ النحو ينقسمُ إلى قسمين: نحو مفردات، ونحو تراكيب. فأتَى الخللُ من عدم الاهتمام بنحوِ المفردات، والدخول مباشرةً إلى نحو التراكيب.

وأعني بنحو المفردات: دراسَة الكلمةِ نفسها؛ بدايةً من تحديدِ نوعها أولًا، وهل هي اسمٌ أمْ فعلٌ أمْ حرفٌ؟ وهل هي مَبْنِيّة أمْ مُعْرَبَة؟ وإذا كانت مُعْرَبَة، فهل هي مُعْرَبَة إعرابًا أصليًّا أم فرعيًّا؟ إلى آخره.

فمثلًا كلمةُ (ضربَ): فعلٌ ماضٍ، والفعلُ الماضي يَكُون مبنيًّا.. إلخ. ثم يُنتقل بعد ذلك إلى التركيبِ، وإدخالها في جملةٍ.

ولهذا إذا نَظَرْنَا مثلًا إلى أَلْفِيَّة ابنِ مالك رحمه الله التي جمعَ فيها النحو، والتي تتكوَّن من أَلْفٍ واثنين من الأبيات، نَجِدُ أنه أَفْرَدَ أوَّل مائة واثني عشر بيتًا لنحو المفردات، ولمْ يَشْرَعْ في نحو التراكيب إلا بدايةً من البيت الثالثِ عشر بعد المائة، وما ذلك إلا إشارةً منه إلى ضرورةِ العنايةِ والبدءِ بنحو المفرداتِ، وأنه المَدْخَلُ إلى ضبطِ عِلمِ النحو.

فكان الأئمةُ قديمًا يكتفون بدراسةِ الألفية، والانطلاق منها، ويظهر ذلك في كثرة استشهاد شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن حجر لأبياتها، بل حتى من المتأخرين كالشنقيطي رحمه الله صاحب أضواء البيان، فكم من الأبيات في الألفية يستشهد بها في كتابه أضواء البيان وفي غيره من الكتب.

وها هنا فائدةٌ عظيمة يَحْسُن ذِكْرُها، تدلُّ على أهميةِ تعلُّم اللغة، وهي أنَّ أصحَّ نسخةٍ من نُسَخِ البخاري هي نسخةُ اليُونِينِي؛ وما ذاك إلا لأنها قُرأتْ على ابنِ مالك -رحمه الله-، فضبطها من ناحيةِ الإعراب.

وبناءً عليه بعدَ هذه القراءةِ، ألَّفَ ابنُ مالك رحمه الله كتابه: شواهِدُ التوضيح والتصحيح لمشكلاتِ الجامع الصحيح، وهو مطبوعٌ في مُجلّد في غلاف صغير، جمعَ فيه الأحاديث التي فيها مشكلة من ناحية الإعراب، ووجّهَها في لغاتِ العَربِ.

فانظروا إلى الفائدةِ العظيمةِ من تعلُّم هذه اللغةِ.

وختامًا، فإنِّي أنصحُ كلَّ مَن أرادَ تعلُّم عِلْمِ النحو ألا يبدأَ بالمتنِ مباشرةً، وأنْ يبدأَ أولًا بنحو المفردات؛ فإنه يَفْتَحُ له مَغَالِيقَ هذا العِلْمِ.